

الطابور عدنان هوساوي



يا صديقي.. كتب علينا توأمة الطابور والالتصاق به للأبد، فقبل أن نلفظ من بطون أمهاتنا على قارعة الطريق ونحن والطابور صنوان، فارتباطنا بمعاناته نشأت منذ بدء الخليقة وعلاقتنا به ووطدت صلتها منذ الأزل، بحيث يصعب علينا عصيانه أو التمرد عليه

وإن انتابت مشاعرنا مظاهر التبرم والضرر أو غشيت جوارحنا علامات الاستياء والملل فسرعان ما نذل ونخضع انقيادًا وإذعانًا له، وإلا تبيدت جميع أحلامنا أن نحن كابرنا، وضاعت مساعينا في العراك سدى، وانتقالنا منه إلى طابور آخر على أمل أن نحظى بعطايا أجزل أو نظفر بمعاملة أفضل دون أن ندرك أننا قد اقتربنا خطأ جسيمًا، لن يسعفنا فيه حظنا العائر للعودة إلى سابق عهدنا، فيغدوا تجشمنا عناء الانتظار هدرًا وهباءً منثورًا، ذلك لأن محاولتنا العبث به أفقدتنا موقعنا الأول، والذي ربما كان الأفضل قبل التغيير.

يا صديقي جميع الطوابير سواء وإن اختلفت مسمياتها أو تغيرت ملامحها، سيظل الطابور هو الطابور ولن يراوح مكانه مادمت فيه، واعلم أن نجم المعاناة فيه ابتدأ قبل أن نستعذب لذيذ الماء أو تستنشق عليل الهواء، وساعة اصطفاك أمهاتنا مكابدة البحث عن سرير الوضع هي أصعب لحظاته، ودخولهن حبلى بنا إلى حبرات الولادة كان أعسر، وإلى أن تضع حرب الطمث أوزارها ونحن فيه، فإذا ما أقبلت لحظة شرف الوضع كنا الطابور نحن ونحن الطابور.

يا صديقي تلك هي دوامة الحياة فلا تبتئس، طابور يتبعه طابور، وطابور يمتطي طابور، وطابور تتوسده الأحزان ودموع الأتراح، وطابور تعلوه بهجة التهاني والأفراح، وآخر مثقل بأصناف الأسى والجراح، وطابور تطفو عليه مظاهر السلبية من عنجهية وسلطوية وترسيخ للأناية، تتلطم فيه أمواج التميز العرقي وعفن التفرقة العنصرية، وطابور صغير هناك لكنه رمز للصفاء، للعطاء، للوفاء، للإيجابية.

يا صديقي لكل منا طابور، قدرنا وشأننا فيه بحسب قدرتنا المهنية ووفق مكانتنا الاجتماعية وبقدر ما نمتلك من علاقات ونفوذ، وريح وفوز، وضوابط الاصطفاك فيه يمكن الاحتيال عليها لكن لمن يملك مفاتيح الفهلوية.

يا صديقي لا تظنن أبدًا بأن الطابور يومًا سوف يندم عنا، فهيهات أن تزول منا أوجاعه أو تنفك عنا معاناته، مابقي الزمان ولزم المكان، فاصرف عنك أضغاث الأحلام تلك، وتيقن بأن طابورًا جميل هناك في انتظار الوقوف فيه على حوض خير الأنام صل الله عليه وسلم، وزد يقينا بأجمل تلك الطوابير حسناً وجمالاً على الإطلاق، طابور ليس كمثله طابور، ذاك طابور الاصطفاك على أبواب الجنة في انتظار إذن الدخول، فهنيئاً لنا هذا الطابور وجعلني الله وإياك ممن قال الله فيهم ادخلوها آمنين.

عدنان هوساوي